تروي الأدبيات الإسرائيلية أن رجلا فقيرا اشتكى إلى صاحب المشورة في البلد أن المنزل الذي يقطنه مع أسرته الكبيرة مؤلف من غرفة واحدة لا تتسع لهم. وسأله ما الحل المناسب لهذه المشكلة؟ فأجابه : هات بقرة واجعلها تشارككم السكن. ففعل الرجل. وعاد في الغد إلى صاحب المشورة يشكو من جديد. فقال صاحب المشورة : هات معزى واجعلها تشارككم السكن. وفعل الرجل مرة ثانية، ولكنه عاد في اليوم التالي يقول إن الوضع ازداد سوءا. فقال صاحب المشورة : هات دجاجة وصيصانها واجعلها تشارككم السكن. وفعل الرجل على الرغم من ضيقه. وعاد بطبيعة الحال يقول لصاحب المشورة إن الوضع أصبح لا يطاق. وهنا أشار عليه بإخراج الدجاجة والصيصان، ثم لما جاءه الرجل لاحقا يقول إن الوضع تحسن قليلا أشار عليه بالتخلص من المعزى. وفي اليوم الثالث أشار عليه بالتخلص من البقرة، وسأله بعد ذلك : كيف تراكم الآن؟ فقال الرجل الفقير : نحن الآن في نعيم!

قد تصلح هذه القصة الفولكلورية الإسرائيلية حسب العقلية التي وضعتها رمزا لدهاء صاحب المشورة، أو مثالا على غفلة وبساطة الرجل الفقير، أو ابتكارا من ابتكارات ترويض بشر لا يزيد ذكاؤهم على ذكاء القردة. ولكن إذا كان الإسرائيلي صاحب القرار اليوم يحب أن يتصور نفسه حامل دهاء صاحب المشورة، ويحب أن يتخيل الفلسطينيين قردة محدودي الذكاء تجوز عليهم لعبة إخضاعهم للعزل عن العالم بواسطة إغلاق المعابر، وحشرهم في مساكنهم بواسطة الدبابات التي تطلق النار على مفارق المدن والقرى، والتضييق على معيشتهم بواسطة قطع سبل العمل وكسب الرزق أمامهم، ثم إذا فتحت المعابر من جديد، وإذا أدخلت الدبابات إلى المستعمرات التي أخرجت منها، وإذا سمح للعمال ثانية أن يبيعوا قوة عملهم للرأسمالي اليهودي مقابل رغيف الخبز الذي يعود ثمنه إلى الرأسمالي اليهودي، نسي الفلسطينيون من فرحتهم بزوال الكابوس المصطنع كابوسهم المقيم منذ اثنتين وخمسين سنة، وعدوا جلاء الدبابات عن الشوارع، بديلا للجلاء عن الوطن واعتبروا إعادة حقهم في المرور بين أماكن لجوئهم بديلا عن حقهم في العودة إلى مدنهم وقراهم التي أخرجوا منها عام ١٩٤٨ وكذا حقوقهم في التعويض والقدس والمياه والأراضي وقرارات الشرعية الدولية.. الخ.. إذا توهم الإسرائيليون ذلك فإنه الغباء الاستراتيجي المشفوع بذكاء تكتيكي يشبه ذكاء التاجر الغشاش الذي يغتنم انفراده بالسوق وبالزبائن ليبيع ويشتري بالأسعار التي يحددها بنفسه، دون أن يفكر أن شطارة الغش والتطفيف في الكيل والميزان تؤدي بالتاجر الغشاش إلى الإفلاس.

من هنا (الشطارة الموهومة) التي تنضح وتنز من المفاوضين الإسرائيليين حين يشترطون أن يدفع الفلسطينيون شيئا نظير فتح كل طريق في الضفة أو في القطاع، ونظير إرجاع كل دبابة إلى مهجعها ونظير التوقف عن اغتيال الأحرار واقتلاع الأشجار وردم الآبار وتخريب الديار الذي لم يشهد الفلسطينيون رغم هول ما شاهدوه من قبل مثيلا له كهذا الذي شهدوه في عهد المخرب الجزار جنرال الاغتيالات الساعي إلى إعادة انتخابه إيهود باراك.

نسي الإسرائيليون أنهم يطالبون منذ أواسط القرن الماضي بالتسوية السياسية والصلح والسلام مع الفلسطينيين ومع المحيط العربي والإسلامي الذي زرعوا أنفسهم وسطه عنوة.

ومع أننا نذكر أن رعيل الإسرائيليين الذين رفعوا مطلب الصلح والسلام مع العرب هم أنفسهم الذين حرصوا على تزويد كيانهم بالضمانات العسكرية المتاحة وغير المتاحة، بدءا بالقوات البرية والبحرية والجوية وانتهاء بالقنابل الذرية وعلاقات التحالف الحربي مع الولايات

المتحدة. غير أنهم كانوا يعرفون بحكم اغتصابهم وطنا وتشريدهم شعبا أصيلا في المنطقة أنهم أثاروا على أنفسهم عداوة محيط عربي إسلامي واسع يستطيع أن يمتص ألف ضربة، في حين أن إسرائيل لن تستطيع البقاء إذا هزمت هزيمة واحدة، فهزيمتها الأولى هي هزيمتها الأخيرة. ولما كان من المستحيل منطقيا تحصين أي كيان من الهزيمة مرة في تاريخه فقد انطوى أولئك المؤسسون على الاعتقاد بأن الضمانة الكبرى لبقاء إسرائيل على الخريطة هي عقد التسوية والمصالحة مع البيئة المحيطة بها. ولسنا بحاجة للاستدلال بالوقائع لنثبت أن إسرائيل كانت وراء كل تحرك أمريكي وأوروبي أراد عقد تسوية بينها وبين العرب.

إلا أن هذه النظرة التي ينطبق على أصحابها وصف الاستراتيجيين عن جدارة، لم تستطع الصمود بقوة أمام نوازع الطمع من ناحية والتذاكي التكتيكي من ناحية أخرى. فكلما تقادم العهد على الاحتلال تعاظمت شهوة التملك والطمع لدى غاصبي الأرض الجديدة الذين اعتادوا اعتيادا أن ينظروا إليها كأنها بعض ممتلكاتهم، فأصبحت إعادتها سلما إلى أصحابها أصعب فأصعب في نفوسهم. وينطبق هذا على رجال السياسة كما ينطبق على جمهرات المستوطنين. وكلما توصلت حكومة إسرائيلية إلى اتفاق مع الجانب الفلسطيني ولمست تطلع الفلسطينيين إلى السلام راجعت نفسها متسائلة : لم لا ترفع سعرها وتبخس سعر الفلسطينيين ما داموا راغبين في الصفقة هذه الرغبة كلها؟ وقد نشب في نفوس الكثير من الإسرائيليين صراع بين عاملين : أولهما الاعتقاد المنطقي والرؤية بعيدة المدى بأن الصلح والسلام هو ضمانة وجودهم مستقبلا، وهو بالتالي يستأهل رد الأراضي التي جرى احتلالها عام ١٩٦٧ إلى أصحابها وثانيهما المنفعة الملموسة جراء تملك المساحات المغتصبة، واستخدام الذكاء والقوة للحصول من الفلسطينيين والعرب على صفقة رخيصة إلى أبعد حد، بحيث لا يستلمون إلا مدنهم السكنية، مجردة من أريافها وضواحيها ومجالاتها الحيوية.

ومع أن مؤسسي حزب العمل هم أصحاب النظرة الاستراتيجية الأوائل الذين رفعوا شعار الصلح والتسوية و (الحل المعقول المقبول) كما دأبت دار الإذاعة الإسرائيلية على القول منذ ١٩٤٨ فمن المفارقات أن حزب العمل هو الذي فتح بعد حرب ١٩٦٧ شهية ومطامع جماعات المستوطنين بزعامة الحاخام كوك للاستيلاء على أراضي الضفة وإقامة المستعمرات الجديدة فوقها، وكلما كان يزداد انخراط الجنرالات السابقين في الحياة السياسية، ويتبارون في استعراض مواهبهم الفكرية التي تتحدث عن حماية الجمهور وتأمين حدود (الدولة) وتوسيع مدى المستعمرات وكسر أنف العرب، ازدادت فرص وصولهم إلى سدة الحكم، واتسعت في إسرائيل شريحة الناس الذين ينظرون إلى المستعمرات بوصفها جزءا لا يتجزأ من ممتلكات الذين بذروهم. وكان بديهيا أن يصحب صعود نجم الليكود ارتفاع كبير في نسبة الذين يتطرفون في أطماعهم ويتعصبون في أحقادهم. حتى بلغ الأمر بسفاح صبرا وشاتيلا الجنرال آريئيل شارون أن يقول مؤخرا : إنه إذا نجح في الوصول إلى سدة الحكم في الانتخابات القادمة فسيكون مستعدا لتقديم تنازلات مؤلمة، فلما سئل : وما هي؟ إذا بالمستوطن الذي اشتق اسمه العبري التوراتي (شارون) من اسم عائلته الروسي الحقيقي الأصلي شراينبرغ يجيب بلهجة جادة لا هازلة : سأترك نابلس وأريحا للفلسطينيين دون أن أفكر في احتلالهما!!!

لقد أصبحنا نعرف أن باراك رجل عمليات عسكرية، واختصاصه الاغتيال والتخريب أملا في تدمير قدرات الفلسطينيين مباشرة. أما شارون فهو الذي ينظر لنفسه جديا بوصفه استراتيجي مؤهل في كليات الحرب. غير أن استراتيجيته كما عبر عنها في عام ١٩٨٢، عندما كان وزير حرب في وزارة مناحم بيجن، تتمثل في مد اهتمام إسرائيل ومساعي سيطرتها من المتوسط

حتى أفغانستان شرقا. أي أنه يريد تدمير قدرات الفلسطينيين بطريق غير مباشر، عن طريق حرمانهم من القوى المتعاطفة أو الحليفة بحكم رابطة القومية أو رابطة العقيدة في العالمين العربي والإسلامي. وهذه الاستراتيجية المجنونة تقوم أصلا على تجاهل الحقيقة التاريخية القائلة إن من المستحيل لدولة مهما بلغت من القوة أن تقاوم عامل الزمن ونهوض الدول الأخرى، كما كان من المستحيل حتى لرجل في عبقرية نابليون أن يتجنب وجود عكا في طريق أحلامه.

لا.. لا.. لم نقترب من السلام قيد أنملة. والسبب أن قادة إسرائيل فتحوا باب المزايدات اعتبارا من حرب ١٩٦٧ وأثاروا لدى جماهيرهم شهية الازدراد والابتلاع والحصول على السلام بسعر بخس، أو حتى بالمجان. وحشوا تلك الجماهير بروح تعظيم الذات والاستهانة بالآخر، وجعلوا ما رددوه على سبيل المزايدة والمناورة الانتخابية عقيدة بشعة لدى فئات المتهوسين الدينيين والمغامرين الأمريكيين (وهي الفئات المتطوعة غالبا للعيش في المستعمرات، على أمل أن تحظى بفرصتها لقتل العرب).

أما الخطة المبيتة والسيناريو المتفق عليه بين باراك وشارون وأشباههما، وهو سيناريو الاستنزاف والمذابح والتهجير تحت ذريعة حالة الحرب، فهما قادران ولا شك على تنفيذه. إلا أنه سيؤدي إلى ما أدى إليه عدوان ١٩٦٧، إذ يصبح المهجرون الفلسطينيون لاحقا وسابقا، ومعهم كل قوى الرفض في الأمة، قواعد لحرب شعبية جديدة تطوع المنطقة لمقتضياتها. ويبدو أن واشنطن التي تعرف بواطن الأمور في إسرائيل تأخذ هذا الاحتمال على محمل الجد، وإلا : ما الذي دفعها بالأمس إلى تحذير الرعايا الأمريكيين من السفر إلى المنطقة؟!

لقطات الأسبوع :

=========

*** تقول لي إن من مصلحتك أن تشوه وجه وطني؟ أقول لك إن من واجبي أن أفقأ عينيك.**
*** يا من تخاطبهم بأوصافهم القذرة على المكشوف، أأنت حقا مجبر على استخدامهم؟ لا نصدق!**
*** قال إحسان عبد القدوس على لسان إحداهن : أنا لا أكذب بل أتجمل، وقياسا عليها فإن بعضهن لا يناضلن، بل يتجملن.**
*** ثبت بالمشاهدة أن قوات الاحتلال لم تردم آبار المياه وحسب، ولكنها حفرت حفرا عميقة لردم بيوت فيها ثم إهالة التراب عليها. متى تأتي لجنة ميتشيل لتتفرج؟**
*** عسكري وتاجر معا؟ لا تستقيم. ولكن يمكن للرجل أن يتاجر بالعسكرية (دون أن يستطيع أن يعسكر بالتجارة).**
*** لاحظ المواطنون الذين أتيح لهم أن يتوقفوا طويلا على حواجز جيش الاحتلال أن كثيرا من الجنود يتكلمون بلهجة لبنانية. يبدو أنهم من بقايا رجال أنطوان لحد. ويلاحظ أن جيش الاحتلال يعمد كلما استطاع للزج بعناصر المتعاملين العرب العاملين في صفوفه في نقاط المواجهة الأولى. فالعزاء فيهم بارد، ودمهم رخيص.**
*** علمت أن أحد الظرفاء بعث لأحد أصحاب المراكز العليا ممن حصلوا على مرتبة دكتوراة (ماركة واطية) برقية يقول له فيها : " مبروك الدكتوراة. عقبال التوجيهي ".**
*** رب بائع فلافل عامر الجيب أكثر من مالك أرض أو من حامل شهادة.**

*** الديمقراطية هي حكم الشعب نفسه بنفسه لصالح نفسه. أما الديكتاتورية فهي حكم الفرد وحكم الأقلية. هل من يدلني اليوم على بلد في العالم لا تحكمه أقلية أو أخرى بدءا بالولايات المتحدة الأمريكية؟**